

العنوان:	الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة: أبو القاسم الزياني نموذجاً
المصدر:	أعمال الحلقة الدراسية: التاريخ والسياسة مقاربات وقضايا
الناشر:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - مختبر المغرب والعوالم الغربية
المؤلف الرئيسي:	جادور، محمد
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2013
مكان انعقاد المؤتمر:	الدار البيضاء
الهيئة المسؤولة:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - مختبر المغرب والعوالم الغربية
الصفحات:	117 - 132
رقم MD:	906935
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التاريخ، الكتابة التاريخية، السياسة، الزياني، أبو القاسم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/906935

الإخباري المخزني بين التاريخ والسياسة

أبو القاسم الزياني نموذجا

محمد جادور(*)

غالبا ما تصنف معظم إنتاجات الزياني في سياق الأنماط التأليفية التي التزم بها ممارسو حرفة الكتابة الرسمية، وعبرت بجلاء عن التمثلات الذهنية والفكرية للكاتب المخزني، لما اتخذت من ولي نعمتها مركزا لإنتاجها التاريخي، وقرأت وأولت الأحداث من خلاله ولصالحه، بل وبحثت عن مختلف المرجعيات التاريخية لتبريرها. لكن تفحص بعض النصوص يحيل إلى انفراد هذا المؤرخ التقليدي بخطاب تاريخي لم يخضع في شكله ومضمونه لنفس نسق التأليف لدى عامة الإخباريين، والذي كانت غايته بالأساس إثبات سياسة عامة للمخزن المغربي، بقدر ما اتسم بنوع من الجرأة غير المعهودة في اقتحام قضايا ومواقف سياسية. فما طبيعة هذه المواقف والقضايا؟ وكيف ساهمت في انتقال الزياني من مدون لأحداث تاريخية إلى طرف فيها؟ بصيغة أخرى كيف صاغ الزياني الاحداث التاريخية التي قدمها في مخطوطه «تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء»؟ وعلى ماذا تحيل الصور التي رسم بها مسار الأحداث التي عاشها المولى سليمان في عشرينيات القرن التاسع عشر؟

*. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك، الدار البيضاء.

مواقف الزياني بين الفعل التاريخي والفعل السياسي

حدث هزيمة السلطان وخلعه من زاوية الخطاب

المؤلف

أصله من زيان وولد بفاس في أسرة ميسورة ودرس بمسجد الأندلس وبمدرسة الصهريج ومدرسة العطارين وبالقرويين، وعمر طويلا (1734 ـ 1833م) وسافر مع والده إلى الحجاز فزار مصر وتونس: «وتقلبت في عدة منصب الكتابة من غربه لشرقه، ولقيت من زعازع أرياحه ورعده وبرقه، إلى أن بلغت كورة الرأس ومضيق العنق، ووقفت على دائرة الافق، في السفر والمقام مدة عشرة أعوام، ثم حصلت في النكبة ووقفت على باب الندبة، وأقمت بين الهلكة والتلف، عام اثنين وثمانين ومائة وألف، وهي النكبة الثانية، ولما خلصت من النكبة، وكتب لي أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله بعد الطلاق رسم الرجعة، وقلدني ديوان كتابته... وخلف لي ما ضاع... وبلغت أعلى المراتب، وتقلبت في المناصب...»[1]. وخلف نحو 27 مؤلفا معظمها غير منشور كـ «تحفة النبهاء...» و«حديقة الحكام الجفاة ومن انضاف إليهم من البغاة» و«التاج والإكليل». وعمل سفيرا خلال بعثه سيدي محمد بن عبد الله لدى عبد الحميد العثماني، وعاملا على وجدة. كما عاصر أربعة سلاطين من سيدي محمد بن عبد الله إلى المولى عبد الرحمن بن هشام. وعانى كثيرا في مسيرته من مكائد ودسائس الحاسدين. وقد شكلت كتاباته قاعدة لاكنسوس الذي كان ينكر ذلك، وللناصري الذي أشار إليه عدة مرات. ولم يشاركه في مواقف الجريئة إلا الضعيف الرباطي[2].

يبدأ الزياني بتأطير نظري للموضوع ينطلق من قاعدة فكرية معروفة في المرجعية الإسلامية، وهي تلك المرتبطة بالخروج على الإمام، ويربطها بالحدث الذي يريد تناوله في هذه المقامة بالقول: «الخاتمة في شرح أحوال أهل البدع من الخوارج الذين ينازعون الملوك ويسوون بين الغني والصعلوك... وتحذيرا لهذه الامة من الخروج على الائمة... مقامة ذكرت فيها ما وقع من الخوارج في نكبة أمير المؤمنين في وقفة ادخسان من جبل فازاز، لما اجتمع له برابرة آيت أمالوا، ولما كان وقت اللقاء خذله من كان معه من غيرهم من البربر وجروا عليه الهزيمة»[3].

1. أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، الطبعة الثانية، 1991، ص. 62.

2. أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى... ص ص. 4 ـ 5 ـ 6 ـ 7.

3. أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء، في ذيل كتاب، التاج والإكليل في مآثر السلطان الجليل، خ ع ك 241، ص. 147.

وهكذا استهل المقامة بتقديم قال فيه: «فإن الله جلت قدرته، وتقدست ذاته وأسماؤه وصفاته، اختار من خلفه الانبياء والملوك للتسوية بين المالك والمملوك، وإقامة الحق للضعيف من الاقوى... ولا يتمكن الوصول إلى هذا الباب إلا بإقامة السلطان في كل الأوطان، فبه تحقن الدماء وتحفظ الاموال، وتزجر البغاة في الافعال والاقوال، ومثله كمثل سراج في بيت مظلم يضيء على الناس وهم على ما يتعاطونه من كل الأجناس، فإذا طفا السراج وأظلم البيت تعطلوا وعن أشغالهم تحولوا، وخرج الفار والحية والعقرب واللص والسارق، وأبدا ما في ضميره المنافق، فلا يتمنى زوال السلطان إلا فاسق أو ظالم أو جاهل أو منافق، كما وقع من أهل فاس، ومن تبعهم من خوارج الأجناس، لما وقعت الفتنة الكبرى والطامة العظمى... بجبل فازاز من ادخسان وانهزم فيها السلطان...».

وقدم في الخطوة الثانية توصيفا للأحداث، من خلال تناول من شاركوا فيها ومن وقفوا منها موقفا معارضا، ثم بين انعكاساتها معتبرا أن «... تلك الهزيمة وسيلة للفتنة، وسببا لكل بلية ومحنة، قام فيها خوارج البربر لنهب السبل وقعدوا وتبعهم الجند في الفساد ومنه استمروا ولما رأى ذلك المردة من أهل فاس ركنوا للخروج على السلطان، وله استعدوا، وغرهم فقيتهم في تسعة من رهطه ومن انضاف إليهم... ولبسوا على العامة الحق بالباطل، وقام الفساد في كل حامل وعاطل، وأما أهل الخير والصلاح والدين المتين والعلماء العاملين، فلا يسعون في فساد دولته عند ضعف شوكته، كما قع في مصرنا هذا من امتناع الفقهاء الاجله البدور الاهلة من إتباع الزنيم... الخبيث المفتي فيما زوره وافتراه، وأوله بزعمه واجتراه، وتبعه فيه السفطة اللفطة الجهلة الغلطة، وهم الذين أفتوا بالخلع، وقاموا في ذلك وقعدوا، وسعوا في البيعة لغيره، واجتهدوا فأتى الله بنيانهم من القواعد وانهد عليهم وهم بين قائم وقاعد، وجعل الله هذا الغمام الطيب ليميز الناس بين الخبيث والطيب، وسميت هذه المقامة «تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء»[4].

والملاحظ أنه مجد الفقهاء المتنعين، وذم وسب وشتم بلغة نابية القائلين بخلع السلطان: فبالنسبة للفقهاء المتنعين عن مساندة فكرة الخلع والداعمين للمولى سليمان فهم على التوالي: القاضي أبو الفضل العباس وأخاه السيد عبد الواحد الخطيب في مصلى المدينة، وسيدي محمد بن الطاهر العالم والناصح في تعليم أولاد السلطان، ثم العالم شيخ الإسلام الشريف الازمي عبد السلام، والفقيه العلامة بدر الدين، وأبو عبد الله محمد السنوسي، والفقيه السيد العربي الدمناتي، وأبو العباس أحمد بن أبي نافع، ثم عبد الرحمن بن مخلوف، ثم المحتسب أبو العباس أحمد بن المختار، ثم القاضي أبا عبد الله البوري، والفقيه عبد الرحمن الحلو، وهؤلاء الاثنى

4. أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء... ص ص. 148 ـ 149.

عشر هم الذين دافعوا في رأيه عن الدين. وينضاف إليهم الرئيس أبو عبد الله محمد بن إدريس، وأديب مراكش والسوس محمد أكنسوس[5].

أما الفقهاء التسعة الذين قالوا بالخلع فقد نعتهم بما يلي: «الدجال الخسيس المشوم النحيس الذي هو ابن إبراهيم نائب إبليس...فبذل في الكتاب وغير وزاد وأسقط ما أراد»[6] والذي وصفه بالمرتشي وبالبخيل والخبيث. «وأعانه على وضعه وبهتانه الصنم الجاهل الاخرف العاطل. من لا يميز الحق من الباطل... أبو بكر المدعو المنجرة». «ثم رفيقه في الغيبة والنميمة والصنعة القديمة... محمد بن أبي بكر اليازغي». و«رفيقه في هتك المحارم... المشهور بالديوت العربي الزرهوني)». «ثم خامس القوم في الفتوى... فلله در من سماه الغاسولي، الفاجر علي التسولي)». و«سادسهم في الإفك والبهتان والاقتداء بعبدة الأوثان... الشريف أبو بكر الإدريسي)». «ثم سابعهم فيما افترقوا ومعينهم فيما بدلوا وحرفوا، وأطمعوه بالقضاء لو أنصفوا وليته لو طلب عليهم الحسبة، فقد كانت لسلفه رتبة، أو اتبع طرقة والده في القود وكراء البيوت، والجمع بين النسر والحوت، ولما كسدت بيده الصنعة وقلاه من كان يأتيه لما شاعت به الآبنة، إن قلت خنثى فلست بعابثا، أو حلفت أنه أنثى فما أنت بحانث. فقد كان مرحاضا يبول به المسلمون واليهود، ثم صار مرحاضا مأبونا يأتيه السفلة والأفاريد والشهود، فكيف يصلح حال قوم قدموه، أم كيف يتم عمل لمن في خرقتهم أقاموه، فلا يصلح عبد الملك المري إلا للسعي في طرق المناكر والخزي»[7]. أما «ثامنهم كلبهم البسيط، وخديمهم الوسيط الذي جلب لهم ما كان لسلفه من الفتاوى مخبأ... حتى سلط الله عليه بسبب فعله الوسواس، مجازاتا لما يفعله من بيع رباع الزوايا والأحباس، الكلب العقور الفاسي الذي هو المجذوب الفاسي»، «وتاسع التسعة رهط الذي هو خليفة والده العجاج الاحمق الأخرف ابن حمدون ابن الحاج، ولما خاض مع من خاض، ابتلاه الله بشيء عظيم من الأمراض، حتى عقد له شيء في الحناجر لأكله أموال اليتامى والمحاجر، والمكنف بجمعهم وهو عندهم الترجمان والقهرمان وأكفرهم وأنجسهم محمد بن سليمان»[8].

وأطلق الزياني على الفئة الثالثة اسم «المذبذبون الذين شهدوا في البينة، ويميلون مع كل ريح فلا تكاد تميز بين المعتل منهم والصحيح»، ورئيسهم الطالب بن سودة، ثم المدعو أحمد المنجرة، ثم عبد الوهاب القادري، ثم الطالب بن محمد بن سودة. «ثم أستاذ الزوارين وذو المساوئ عبد السلام المسناوي، ثم مدلس الرسوم

5. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 150 ـ 151.
6. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 151.
7. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 152 ـ 153.
8. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 153.

الذي هو للنضار كالماء للآنية أو الحبل للسانية ومن الغمز واللمز لا يخلو محمد لحلو، ثم من ورث الخيانة عن أبيه في السر والإعلان المفضل الجنان. ثم سمسار القضاة عند قبض الرشوى، ومن هو مهيأ لكل زور بلوى. فتارة يصيب وتارة يخطئ محمد السطي. ثم صاحب القيان والدنان عبد السلام أبو عنان الذي إذا سمع من يدعو إلى زور قام وقعد، ويقول أنا محتاج هل هناك أحد. ثم جليسه في حافة النسور وقسيمه في كتب مكاتب الزور القائم في المحافل بمدح الشقي الفجور، ولما يسره جالب محمد أبو غالب. ثم المبغض لكل من هو شريف علوي، منكر الصنيع عبد القادر السلاوي...»[9].

وتابع الزياني خطه في السخط على من نعتهم بـ«البغات الذين كشفوا القناع في شق العصا، ومن أعجبه سفههم اقتدى بهم وعصا، وقاموا في ذلك وقعدوا وأنكروا الصنيع وجحدوا، فهم تسعة هم وآباؤهم أولاد زنى.... وتسعة آخرون أولاد زنى مفردون بعدد الرهط الذين شيعوا الخلع وقاموا بالفتوى، وحملوا الناس على ارتكاب هذه البلوى، فساروا هم والخوارج سوى، فرئيسهم هو... سليب العقل والإيمان الشقي محمد بن سليمان، وقائد البغاة والفساق المجتمعين من الآفاق ومأوي أهل الشقاق والنفاق الدعي ابن عبد الرزاق... ومدبر أمرهم الأعمى الأطرش... المارق عبد السلام الخطيب، والقديم في العسر المحروم من كل يسر... الفاجر عبد السلام العسري، وتابعه في الخطايا والسيرة الخبيثة اللعين ابن إبراهيم بن احويتة، والمتاوي كالافعدان وجربه يعدي الاخرف عزوز الجعيدي، والاحمق الذي رسمه من العقل دارس الملق إدريس بن فارس، والشيطان الرجيم البخيل اللئيم... الكذاب ابن خالد، ومن على القبائح لا يتحول، وعلى الخير يوما ما لا يعول، المرتد المدعو الجني قاسم الوني، ومن يتخلق بأخلاق عبد الحق المريني، ويقول ما بهذا المصر قريني المارق ابن صالح الليريني، ثم الدعي بنسبه لانصار الحجاز... الغادر الطيب البياز، ثم رفيقه في المخازي والمعاصي، وشريكه في الظلم والاخذ بالنواصي... عبد البسا، والزنيم المعين لتشييع الأقوال وقبيح الأفعال القرد الضال... ومن يتشبه بعكرمة البياض، وهو انحبس من المرحاض، الذي هو أغدر من أم عامر وأجحد للصنيع من كافر إن دعي للشر تقدم وتصرف، وإن دعي للخير تخلف المنافق قدور المكرف، ثم صاحب الغيبة والنميمة والبيعة للفئة السقيمة التابع للخوارج حيث ما صدوا... الفاجر محمد بن حدو، والاحمق الاخرف المجيح العربي المليح والمراهن المنافق... أحمد الحارثي، وقسيمه في الطريقة... الشهاب الطيب الجزولي، وخبيث الافعال والأقوال الزعيم في المجال الكلب العقور الجاني المدعو العماني. فهؤلاء الملاعين هم الذين كانوا في شق العصا

9. أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء... ص ص. 153 ـ 154.

ساعين وللخروج على الإمام داعين، ولولا ضيق المقام لأطلنا فيهم وفي أتباعهم الكلام»[10].

حدث هزيمة السلطان وخلعه من زاوية الفاعل السياسي

بعدما عبر الزياني عن موقفه ممن أسماهم بالخوارج الثائرين على الشرعية، انتقل إلى تناول الأحداث انطلاقا من تموضعه في مجرياتها، وبناء سواء على المواقف السياسية التي اتخذها أو تلك التي تحمل تبعاتها من خلال تعرضه لمختلف أصناف الضغوط وحتى للسجن.

ظروف إصدار الفتوى

حين صدرت فتوى خلع السلطان تحامل الزياني بشدة على موقعيها وعلق على ذلك بالقول: «فانخرعت بذلك وانحل عزمي وضاع بصنيعه حزمي الشيطان الأزمي، فتدارك ما فاته وتقدم إلي القوم بالنصيحة، وقال اسمعوا مني النصوص الصريحة والنقول الصحيحة، وإنما تأخرت عن الكتابة على تلك الفتاوى لأنها محلولة، وعساكرها مفلولة... وبناؤها على غير أساس، فاجعلوا بناءكم كبناء المقياس، فإن كان ولا بد من هذا أقيموا بينة عدلية من خمسين شاهدا مبرزين أن سليمانا فر وترك الناس فوضى كغنم في حضيرة غير محرزين وخالف عليه جنده وفارقه سعده، وصاح مفردا وليس معه إلا عبده، فإذا فعلتم هذه البينة وخاطب عليها القاضي، نكتب تحتها السؤال والجواب، ونذكر ما قاله الأئمة... ودخلوا لضريح مولانا إدريس، وجمعوا كل من له بالشهادة مسيس... ثم كتب عليها التسعة رهط المقدمون في الفتوى المعينون لهذه البلوى، ثم دفعوها لكتاني فتوجه بها متقلدا بسيفه الاثنى عشر نقيبا المسودون الذين لم يكتبوا، وعن متابعتهم رغبوا أن يكتبوا على هذه البينة ما رسمه الأزمي ورسمه، ومن أبا أن يكتب يأتي برأسه، فلم يتأخر عن الكتابة إلا الثلاثة الذين خلفوا، وفي الاختباء اعتكفوا، كبدر الدين الذي تمارض وتماوت وعارض، والحسن ابن فارس الذي اختفى في بعض المدارس، في بيت المكانس، ويلحق بهما الصاحب المواتي السيد العربي الدمناتي، فإنه استجار بأمير بني مطير، فأجاره من أصحاب السعير، وأما أبو نافع والبوري والحلو، فادخلوهم للسجن وبه استحالو، حتى وقعت فيهم الشفاعة وخرجو، ولبيوتهم درجو»[11].

هكذا قدم الزياني الظروف المحيطة بإصدار الفتوى، قبل أن يتحول إلى فاعل في الأحداث، فعمد إلى تقديم رد على من دعموا الفتوى في إشارة إلى الأندلسيين، مستندا على المبررات الفقهية في الموضوع:

10. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 154 ـ 155 ـ 156.
11. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 156 ـ 157 ـ 158.

- إن طاعة أولي الأمر منكم واجبة ما لم يخالف حكم الشرع.

- لا يجوز العزل بلا سبب ما عدا في حالتي الردة والجنون المطبق...

- إن «طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء وانطلاق أيدي الدهماء، وشق العصا على المسلمين والفساد في الأرض، وهذا أعظم من الصبر على جور الجائر»[12].

- «لا يعزل الإمام بالفسق، لأن ذلك قد تنشأ عنه فتنة هي أعظم من الفسق، وأما أميركم هذا حاشاه من ذلك لأنه منزه عن النقائص، فلا سبيل لعزله... وأما أميركم هذا فهو مستوفي الشروط، فلا يحل الخروج عنه باتفاق»[13]. واستشهد في هذا الصدد بتبصرة ابن محرز وبالقاضي عياض.

- لا يخلع السلطان بالظلم، حسب رأي جمهور أهل السنة من أهل الحديث والفقه والكلام[14].

- «إن تظاهر قوم على إمام عزل، وخرجوا عليه كما فعل أوباش أهل فاس، جوهدوا حتى يرجعوا إلى الحق»[15]، «كما ورد في الاثر ومن خرج عن سلطانه فاقتلوه قريبا كان أو بعيدا سفيها أو رشيدا»[16]..

- «وأما لو قدمه من ليس من أهل العقد والحل، ولا معرفة له بأحكام الإمامة ولا بأمور الدين، بل قدمه بعض الغوغاء والرعات وسفلة الناس، كمثل من تصدر اليوم بفاس، فالاتفاق على عدم لزوم بيعتهم، كما أنه لا عبرة أيضا بخلعهم، إذ يشترط في أهل الحل والعقد العدالة ومعرفة أحكام ذلك، كما هو المنصوص»[17].

ولتبرير موقفه انتقل الزياني إلى انتقاد من سماهم بالعلماء المشوشين على العامة من أمثال أهل الطرق، وألصق بهم نعوتا مشابهة لتلك التي ألصقها بالعلماء:

الطرق الوهابية والدرقاوية والتيجانية[18]

أشار بداية إلى مراحل انتشار حركة سعود الوهبي ومراسلته لسكان افريقية والعراق ومصر والشام ودعوتهم لإتباع مذهبه. كما أرسل سكان تونس رسالته

12. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص-ص. 158 - 159.
13. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 159.
14. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 159.
15. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 160.
16. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 162.
17. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 161.
18. عن مواقف المولى سليمان من هذه الطرق، راجع: محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**، ترجمه عن الإنجليزية محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الاولى، 2006، ص ص 280 - 281 - 282 - 283 - 284 - 285 - 286 - 287 - 288 - 289 - 290 - 291 - 292.

لعلماء فاس. فنظم أحد العلماء قصيدة في مدح المذهب الوهابي[19]. واعتبر أن السلطان لو علم ذلك لانتقم منه ونفاه للجزيرة إذ « كيف يتقرب إلى من يخيف أهل الحرمين. ويمنع من زيارة سيد البشر. ومن زيارة الأولياء والتوسل بهم إلى رب السموت. وينهى عن قراءة دلائل الخيرات. وعن الدعاء بمقامات أهل الكرامات. ولما شاع خبره وخُبره بالمشارق والمغارب. تبعه أهل البدعة من كل صوب وجانب. فقام بمغربنا هذا التجاني الفاجر الثاني. كان يدلس السكة بيده بمدينة تلمسان. ويدلس الدين باللسان. فنفاه منها أميرها الباي محمد بن عثمان. ونزل قرية بوصمغون من نواحي الغواط. الذين يبيحون الزنى واللواط. واجتمع برءوس الإباضية المتحيزين ببدعتهم للأماكن التي لا تنالهم فيها الأحكام. واجتمع عليه طائفة من الجهلة والاعوام. ولما علم به ابن عثمان... وجه لأهل بوصمغون أن يطردوه... فلما سمع ذلك فر لمدينة فاس»[20]. واجتمع به السلطان. فأظهر له تقشفه. فأسكنه بمنزل فاخر. وأنفق عليه[21].

أما بالنسبة للعربي الدرقاوي فوصفه بالمتمرد «الأحمق الأخرف الخاوي. فقد كان في ابتداء أمره صعلوكا يدور في الجوامع. وجره لفاس وسواس المطامع... وكان لصا مبيدا باللباس الفاخر يتجمل. ولما تاب صار يتجرد من الاحرام. ويسعى في الأسواق في عباءة ملف ذات الكمام. ويقف بكل دكان. ويمد يده يتطلب. والدرقاوي خلفه يتعلم ويتحزب. ولما مات الجمل بفاس... فتوجه لقبيلة بني زروال. وصار يجمع عليه البطالين. ومن ليس له أهل ولا عيال... ويتوجه بهم للمداشر. فيضيفهم من كان له معاشر. وإذا نوجهوا يفرون بمن يجدونه ويميلونه من الأولاد. وظهر منهم في الأرض الفساد. وأكثرهم يبيحون الزنى واللواط. ومن منعهم من الأولاد ضربوه بالسياط. ولما وقعت فتنة العرب مع الترك بالواسطة. وهرب خليفة الدرقاوي... اجتمعت هذه الطائفة الدرقاوية. ونافسوا العرب على الترك... وقصدوا الترك لمدينة وهران بالحرب... فكتب الباي لسلطان المغرب مولانا سليمان. أن يوجه له شيخ الطريقة الدرقاوية ليجمع بينهم وبينه الأمان. فندبه السلطان لإطفاء نار الفتنة. وإصلاح ما وقع من الفساد من درقاوة بتلك البلاد. ووجه معه عينا من حيث لا يشعر»[22]. ووعد العرب بدعمهم لحرب الترك والتفوق عليهم. فلما اقتربوا قصفهم وشتت شملهم. ونسب ذلك للترك. فتأكدوا من كذبه. وتوجه إلى أهل تلمسان. وطلب منهم مبايعة السلطان. فرافقه وفد منهم إلى قصر المولى سليمان.

19. أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص ص 163 - 164.
20. أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص. 165.
21. أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى**... ص. 460.
22. أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص ص. 166 - 167.

الذي كشف مكيدته، فرفض بيعتهم وهداياهم ووجه خديمه القائد عياد ليصلح ذات البين بينهم وبين باي تلمسان، ثم عاتب الشرقاوي شفويا وطرده[23]. كما وقف عند إتباع زعيم الزاوية الوزانية لسيرة الدرقاوي[24].

وليجعل من مواقف هؤلاء نماذج متميزة في التمرد، ساق جملة من الأمثلة في هذا السياق[25].

- **قضية العمراني** الذي كان في حياته صعلوكا، ثم أظهر الزهد والنسك والاعتزال، فاشتهر وذهب إلى الحج، وبدأ يطلق كراماته، فأخر الناس في إحدى

---

23. أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص ص. 167 - 168. وفيما يخص الدرقاوي وقضية بيعة أهل فاس لإبراهيم بن اليزيد: لما استدعاه أهل فاس «قال خذوا ما عندي من الأخبار المفصلة، أن سليمان مات وأوقفني الله عليه يقضة لا مناما، فبايعوا إبراهيم ولا عليكم ملاما، فجمع طائفته ووقف بالباب، ونادى بنصرة الأحباب، فما وسع الناس إلا إتباعه وبايعوه، ولزيارة مولانا إدريس أخرجوه وأركبوه، ومن الغد توجه ليأتي بجند الوداية المجتمعين، وقال أنا آتي بهم مكرهين أم طائعين، فلما سمعوا كلامه... قاموا إليه ليقتلوه، فأجاره قاضيهم بعد أن جردوه وحملوه، وفي السجن بكبله أنزلوه، فهذا فعل صلحاء الوقت وعلمائه، الذين حرفوا ما في كتاب الله وحديث رسوله وأوليائه، قبحهم الله ما أسرعهم إلى الفساد، وأجراهم على تفريق ما حض على جمعه أهل السنة وأهل الرأي والسداد». راجع: أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص ص. 168 - 169.

24. فخرج من زاويته، وتمرد على السلطان «دون حياء وحشمة، ولا عرف أن ذلك في الدين وصمة، فانكشف بذلك سره، وكسف بسوء فعله بدره، ورفضه من كان يعتقده ويزوره، وسلبه الله رونقه ونوره، بعد أن كان في زاوية الإهمال، وأخوه التهامي تشد له الرحال، وهو في الذل والهوان، ولما ضاق به الحال... انتقل بكليته لتطوان، فاتفق أن ذكره بعض من وفقه الله للسلطان... فكتب له بالقدوم وولاه أمر زاويته، وأحياه بعد موته... ووجهه للصلح بين قبائل العرب والبربر، فبغى في الحين وتحير... إلى أن امتلأ حوضه من المال، وجلب المواشي وحمل الاثقال، وتوجه في إثر السلطان إلى الرباط ممتلئ الجراب... فوجد القيمة قامت، والجنود انحرفت عن السلطان ومالت، وقد توجه في حاشيته على طريق الساحل... إلى أن بلغ لمدينة آسفي... والعربي في طريقه يجبي الأموال على ما سبق من الأهوال. ولما قابل السلطان أكرمه وقدم له التخت والدخيرة، ووجهه لثغر السويرة، فلقي منها بأنواع الملف والكتان، وأنواع العطر والحرير وعقود الجوهر والمرجان... ولما قدم عليه لمراكش زاده على ما كان له حصل، فوادعه وعنه انفصل، فبلغ لوزان قرير العين... فلما بويع إبراهيم بفاس، وجه أهلها بوعز امنيشر... لشيخه العربي يعلمونه أنهم أوقعوا البيعة ويأمرونه بالقدوم، وبتقديم من في الخيام والدشور، وتلميذه بوعز امنيشر ملازم بالدخول على من أمروا... فأحضر عالمهم وقاضيه وكتب بيعته... واستنفر إخوانه لتحريض القبائل... وتوجه بهم قاصدا مدينة فاس...». واعترضه جند الوداية، وقال لهم لا تعتبروني مثل الاحمق الزرقاوي، فقد قدمت لاتوسط بينكم وبين البرابر وأهل فاس، وترك لهم خزائنه وأصحابه رهينة، فكانت خديعة منه، إذ نجح في إبلاغ بيعته لإبراهيم، وجمع الحياينة وشراقة وأولاد جامع وأحميان واحجاوة للبيعة. لكن مكره افتضح، ونهايته كانت مأساوية. انظر: أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص ص. 169 - 170 - 171.

25. «وأمثال هؤلاء المبتدعين كثير فلا تسأل عن أصحاب السعير» أبو القاسم الزياني، **تحفة النبهاء**... ص. 177.

السنوات عن السفر إلى الحجاز إما بغرض الحج أو التجارة، لأن لا نفع فيهما، فعلم السلطان بذلك، فأحضره وسأله، فأجاب بأن الوهابي أبطله، لكن سرعان ما ورد خبر حج الناس في تلك السنة. وحين رجع من مصر، اعتزل ببيت بمسجد الاباريز، وبدأ يشيع الكرامات في أوساط التجار وأهل المناصب فازدحم عليه الناس، وهو متماد في البدعة والكذب إلى أن انكشف بهتانه. ولما وقعت الفتن للسلطان شارك في كل الوقائع وتدخل بشك مباشر، ودعا بالنصر لمن بويع، واستبدل أقواما بأقوام، لكن كذبه انكشف مرة أخرى، ومع ذلك بقي يمارس بدعته ببني ويشيد، حيث اشتهر «فهؤلاء صلحاء الوقت المقصودين وأنظارهم من العلماء الموجودين»[26].

- **قضية امهاوش**: هو محمد أوناصر، كان له تكوين ديني جيد، ثم تنسك وأظهر الكشف الشيطاني لا البرهاني، وذاع صيته في أوساط البربر في عهد سيدي محمد بن عبد الله، لكن نهبه لخدامه من بربر كروان أدى إلى فراره من السلطان ولم يعد إلا بعد مبايعة اليزيد الذي أكرمه بالمال هو وقبيلته. «ولما مات امهوش هذا ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد ولحسن وغيرهما، إلا أن المذكورين تبعا سيرتا أبيهما في الترحيل والشيطنة والكذب على جهالة البربر وإغرائهم وتنفيرهم عن طاعة السلطان لمجرد الكذب، وليس معهما ما كان مع والدهما من الدهاء والمكر الذي يريدها يخبره به الشيطان أو الجان، إنما تلبسا بشعاره، فأمر أمرهما عند جبل درن من البرابرة»[27].

- **قضية أحمد الخضر**، الذي قام بصحراء فكيك وادعى أنه مولاي عبد المالك بن إسماعيل، والتف حوله «الغوغاء من العربان» وحاربه عرب عبدة بأمر من السلطان إلى أن قتلوه بأمر من سيدي محمد بن عبد الله.

- **قضية الشيخ محمد الشنقيطي**، الذي قصد فاسا، وادعى أنه القطب وداع صيته، «ثم صار يكاتب البربر ويطعن في الكتاب والقضاة، وبلغ إلى الطعن على السلطان» فسجنه بمراكش إلى أن مات تحت العذاب[28].

- **قضية ولد سيدي رحال الكوش** الذي انتفض بحوز مراكش، والتف حوله «غوغاء القبائل والبطالون وواعدهم أن يدخلهم مراكش ويفتح لهم بيت المال ويقسمونه، فاجتمع عليه الهجيج، ودخل مراكش وهم يقولون معه بصوت واحد سلم كلخ، وقصده البطالون من أهل مراكش، وارتجت الاسواق». فأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بقتله عام 1080 هـ.

---

26. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 173 ـ 174.
27. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 174 ـ 175.
28. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 175 ـ 176.

- قضية **محمد والحاج اليموري** الذي جيش العرب بقيادة الهاشمي السفياني، إلى أن قتله السلطان سنة 1088 هـ [29].

وانتقل الزياني بعد ذلك إلى تقديم نظرته للأحداث المرتبطة بهزيمة السلطان سنة 1819م. وفي هذا السياق يصف كيف تم إبعاده من قراءة رسالة السلطان، حتى ينفرد خصومه حسب رأيه، بتزويرها. وفي الوقت الذي اعتبر فيه الزياني أن الرسالة لا توجد فيها إشارة إلى الخلع، وأن الدكالي زور عبارات السلطان، فإن أكنسوس اعتبر ذلك كذبا، رغم إقراره بغموض الجملة، أما عبد الكبير بن المجذوب الفاسي وصاحب الابتسام فقد صرحا بأن ذلك يفيد الخلع. والظاهر أن المضمون الحقيقي يحيل إلى الرغبة في التخلي عن الحكم[30].

- حدث نهب محلة السلطان سنة 1819م

لما قدم محمد والحسن امهاوش الذي جاء بفرقة أمازيغية بدعوة من أندلسيي فاس لدعمهم في مواجهة الوداية على يد بن حموا المطيري، اجتمع ابن حموا وابن الغازي ومحمد والحسن وأحمد ابن الجلالي الحسناوي، وقضوا الليلة بفاس بمنزل ابن سليمان، «وأحضروا المفتي اللعين وفقهاءه الذين كتبوا معه على كتاب الخلع الذي زعموا أن أمير المؤمنين المولى سليمان خلع نفسه ولم (يعد) في الملك فقرأه ابن الغازي، وسببه أن أهل فاس كتبوا لامير المؤمنين بما لحقهم من عيث الوداية فكتب لهم الجواب، وقال في عنوانه هذا الكتاب يحضر لقراءته على أهل فاس الفقيه السيد محمد بن إبراهيم وسيدي محمد بن الطاهر والفقيه السيد بلقاسم الزياني والحاج الطالب بن جلون. ولما دخل بيد ابن إبراهيم ووجد الازياني حاضرا لقراءته ضرب على اسمه «وسوده سود الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، وأهمل ابن الطاهر وابن جلون وبدل وحرف وزاد بخطه فيه ما زاد وقواه على أهل البغي كما أراده»[31].

وفي هذا السياق، بعث المولى سليمان برسالة إلى أهل فاس يدعوهم فيها بالصبر في مواجهة تعسفات الوداية، وينصحهم بالتحالف مع الامازيغ لكونهم أحسن من العرب، ولان بوبكر المهاوش رجل خير وتقي وقادر على حمايتهم. واعتبر أن الجند حين يعجز يبحث عن تنصيب سلطان غر جاهل وربما فاسق «وإذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه، وإن تخليت عن هذا الامر فقد تخلى عنه من هو أفضل مني الحسن بن علي وفاطمة رضي الله عن جميعهم»[32].

---

29. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 176 ـ 177.
30. محمد المنصور، *المغرب قبل الاستعمار*... ص ص. 310 ـ 311 ـ 312 ـ 313 ـ 314 ـ 315 ـ 316 ـ 317 ـ 318 ـ 319.
31. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 177 ـ 178.
32. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 178 ـ 179.

وتساءل الزياني هل في هذه الرسالة خلع أو تسليم؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون إشارة ونصيحة؟ ولهذا السبب شطب المفتي على اسم الزياني، ومنعه من حضور قراءتها على أهل فاس: «لخساسته ودناءته لِيلا ينازع ويعارض فيما بدل وزاد وحرف، وفي الكذب والبهتان أسرف. ودعا لإعانته أهل جلدته من الفساق ورءوس أهل النفاق... فاجتمع لذلك من ندبوه من رءوس الأجلاف، ومن وافقهم من العرب وكانوا معهم أحلاف»[33].

كما أورد الزياني مجموعة من الرسائل معظمها يصب في اتجاه الدفاع عن الأطروحة الرسمية، والبحث عن تبرير للوضع السياسي القائم انطلاقا من الزاوية التي كان يقف فيها وينظر للأحداث. والملاحظ أنه ركز على ما يتعلق بفئة الاندلسيين واستهل بموقف المولى اليزيد ثم المولى سليمان منهم. والظاهر أن تحامل الزياني على هذه الفئة يرتبط أساسا بالدور الريادي الذي لعبته في فتنة فاس، على عكس أكنسوس الذي حمل الرماة المسؤولية[34]. ومن بين هذه الرسائل:

- **رسالة من السلطان إلى الطيب البياز وعبد السلام الخطيب وقدور المقرف** في شأن سجن بلقاسم الزياني داخل الضريح الإدريسي «فرميتموه بأنواع الوبال وفوقتم له سهام النكال، وأغريتم به ابن أخينا فبدد عشه، وتبع خاطر من خدعه، وعري بضريح مولانا إدريس، وسر بما وقع به كل خسيس ونحيس، ولم يراع خدمته لنا ولابيه ولجده»[35]. فأمر السلطان بتوجيهه إليه.

- **رسالة إندارية من السلطان إلى شرفاء أهل فاس وعامتهم في شأن سجن علي ابن السلطان**، وقصف منزله بالقنابل والمدافع، ونهب داره ونسائه، وحل بيعته من خلال إتباع السفهاء المختصين في الزور والبهتان. «كيف وقد منعتم الفاسي المارق الكتاني الوضيع وأزلتموه من يد خدامنا فيا له من صنع بشيع... وعدتم رعايا البربر الأجلاف، يعاملونكم بقلة الإنصاف... وقد بددتم في هذه المدة القليلة أزيد من الألفين قنطار على السفهاء والبربر والفجار..»[36].

- **رسالة السلطان إلى الأشراف العلويين واللمطيين بفاس**، بخصوص سجن ولده ونهب دياره، يتهم فيها الاندلسيين بأنهم أصل كل فساد ينشأ بأي دولة نزلوها أو بمدينة فاس. واستغرب أن يكون اللمطيون كذلك، لما «اغتروا بكلام السفهاء الذين يعدونهم فقهاء وتبعوا الأندلسيين في فسادهم»[37].

33. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 179 ـ 180.
34. محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار**... ص ص. 338 ـ 339.
35. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 180 ـ 181.
36. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 183 ـ 184 ـ 185.
37. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 185 ـ 186.

- **رسالة اليزيد لأهل فاس لما بويع أيام والده**: «يا أهل فاس وأبخس الناس، اعلموا أنكم في هذا المصر كنخالة مختلطة من بر وشعير أو مزبلة مجتمعة من حثالة كل عصير»[38]. ثم انتقد بشدة أهل الأندلس الذين اتهمهم بالغدر والنكاية منذ نزولهم بأرض المغرب.

- **خروج أهل الأندلس على المولى سليمان** رغم الامتيازات التي منحهم إياها كإسقاط المكوس عنهم. «فأنكر الأندلسيون هذا الصنيع الجميل وقاموا للخروج عليه... واستمر الحال على ذلك أياما والحرب قائمة بينهم وبين الوداية تركت النساء أياما، ولما اجتمع بفاس قبائل جالوت أهل الخبث والطاغوت، تحالفوا مع معتقد الناسوت واللاهوت، أنهم إخوانا، وعلى من خالفهم أعوانا»[39]. واقترح **ابن الغازي** إقامة سلطان عادل يعوض السلطان القائم من خلال بيعة **إبراهيم بن اليزيد**. واشترط موافقة الشيخ سيدي العربي الدرقاوي، وحضر وقرءوا عليه وثيقة الخلع. «ولما أصبح، حضر أهل الديوان ببيت الوزير ابن سليمان، وحضر المفتي ورفقاؤه والوزير وسفهاؤه، وشهدوا على الأمراء والأعيان، وقيدوا أسماء غيرهم والرعيان، وتمت بيعة السلطان، وكتبوا بها المكاتب وجهوها لكل الأوطان، وذلك يوم الخميس ثاني عشر من المحرم من عام ستة وثلاثين ومائتين وألف»[40]. وقصدت طائفة من القوم دار الزياني، وهي منزعجة ووجوها مصفرة لعلمها بموقفه «سيما وقد سفهت رأي طلبتهم فيما اقترفوا وزيفت شهادتهم فيما بذلوا وحرفوا، وكتبت أبطل ظلالهم بالنصوص الصحيحة والاحاديث الصريحة»[41].

كما اتخذ الزياني موقفا من سماهم المحرفين والمبتدعين، والذي عمد فيه إلى توجيه انتقاد شديد اللهجة للأمازيغ، إذ قدم جردا لتاريخهم، وانتقد وجهة نظر ابن خلدون في شأنهم، وقابل بينهم وبين العرب[42].

38. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 190 - 191 - 192 - 193.
39. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 194.
40. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 196 - 197.
41. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 197 - 198.
42. «... سيما في هذا المغرب الأقصى الذي لا تجد في برابره إلا سارقا أو لصا وهم أكثر الأمم على الخارجية حرصا، فكل ما حصل فتور في دولة أقاموا لها ثابر، وكل ما ضعفت شوكة سلطان أتوه بدجال جائر يطلب أن يدعى له على المنابر كعادة سلفهم في القديم من كل شيطان رجيم، فليحذر مكرهم كل من بلي بسياستهم من الولات ويجر عليهم أحكام البغاة في جميع الحالات، وهم طوائف منهم الصفرية وهم أكثرهم وهم الذين لا يظهرون بدعتهم إلا عند هرم الدول وضعفها، وأما في حالة قوتها فيتمسكون بأهل السنة في الاقوال والافعال ومنهم روافض متغالون في محبة أهل السنة ولا يقتدون بسيرتهم في إتباع السنة والتمسك بالجماعة، ولا يقبلون إلا أحكام الطاغوت ولا تنالهم أحكام الولات، وليس بيدهم من شرائط الإسلام إلا الشهادتين ومن زنادقة==

وواصل في رسالته الحديث عن المضايقات الكبيرة التي كانت تتعرض لها شيعة سليمان من ضرب وسجن من طرف ممن أسماهم السفهاء، حيث كانوا يضطرون للاجتماع في السر والخفاء بالآجنة والفدن.

استخدام المرجعية التاريخية لتبرير الوضع السياسي القائم

عمد الزياني إلى استحضار أحداث تاريخية سابقة لتدعيم موقفه ولإضفاء الشرعية على النظام المخزني، فانتقى جملة من النماذج الدالة والمعبرة من قبيل:

- **دولة السلطان مصطفى العثماني:** لما بويع ولى في منصب المفتي فيض الله أفندي، الذي حين اغتنى أقدم على جمع «أحداث الفقهاء» و«سفهاء» الجند بغية عزل السلطان باعتباره منهمكا في لذاته ومعرضا عن الملك، فبايعوا من حل محله. لكن اجتماع «أهل العدول وأرباب المناصب الفحول» أفشل خطتهم وأدى إلى إرجاع

== يشاركون الناس في أموالهم وحرمهم ويعتقدون حلية ذلك وهم الأقلون الأبعدون، فهذه مذاهبهم وشرح أحوالهم، وحاصله إذا غلبتهم الدولة قاموا بوظائف الشرع، وإن ظهروا عليها تنمروا وأظهروا مذاهبهم وعادوا لطغيانهم إلا القليل منهم ومن عرفهم لا يلتفتا لما وصفهم به ابن خلدون إذ كان في دولتهم ممن يقتدون به... ما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري من الاوصاف الحميدة والمنقب السنية العديدة هي معلومة للعرب الكرام في الجاهلية والإسلام، ولما ساءت أحوالهم وخالف فعلهم مقالهم حلى الله بها هذا الجنس البربر قبل أن يخون ويفتر ويزيغ عن الحق ويمتر، ولما خالفت منهم الافعال الاقوال، وعاتوا في النفوس والاموال، سلبهم الله الملك والعز إذ أزلهم الشيطان، وضربت عليهم المغارم في كل الأوطان، وانعكس حالهم فيما وصفهم به من الخصال لما سعوا في طرق الانفصال بعد الاتصال، ولم يبق لهم وفاء يعتمد ولا جوار لمن أراد المستند وصار لهم ما صار لمن قبلهم من العرب يتسابقون للخذلان والهرب ولم يبق فيهم من يتخلق بتلك الاخلاق الحميدة أو يتصف بتلك الاوصاف الفريدة، وبعد أن كان بعضها في برابر الصحراء المنقطعين بالقفر لا يعرفون الغدر ولا الخفر... مقيمين لرسم الوفاء والإنصاف، فهم مع هؤلاء البربر أهل قطرنا وإن كانوا إخوانا وفي العصبية أعوانا... لكن في وقتنا ساء حال الجميع وتساوى الرفيع والوضيع، ويؤيد ما قلناه من انعكاس أحوالهم واشتهار غدرهم وقلة وفائهم وانعكاس أفعالهم لاقوالهم ما وقع من غدرهم في حركتهم مع أمير المؤمنين، وفرارهم عنه أجمعين وعيثهم في طرقات المسلمين ونصبهم لدجالهم المبتدع اللعين ومحاربتهم لامير المؤمنين واعتزالهم لجماعة المسلمين ضاعف الله عليهم العذاب وقطع بهم الاسباب وأذلهم مذلة الذباب ورماهم بالرجس الذي يأخذهم دون حساب. وأما هذا الدجال الذي ينصبونه ليحلبوا به على السلطان والرعية فهو محمد ولحسن... الذي نصبه البربر لمحاربة الدولة وأتوا به لمعونة أهل فاس لما شقوا العصا وهو شيطان رجيم لا علم ولا دين يتبعه كل ناعق وقاطع يشابه الزمنطوط عند الروم والترك. ولما أتى به البربر خرجوا لملاقاتهم أعيان أهل فاس لما شقوا العصا وهو خاصتهم وعامتهم، وأدخلوا محمد ولحسن والزموري ولمطير لدار ابن سليمان، واجتمعوا عليهم وأتى المفتي. وقسموا ما كان تحت أيديهم من مال الصائر والاثاث والبارود... وفعلهم أقبح مما فعلته النصارى واليهود...» أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص 200 ـ 201 ـ 202 ـ 203 ـ 204 ـ 205 ـ 206 ـ 207.

السلطان لتخته، لكن اشترط عليهم إحضار المفتي وأتباعه وقتل ورمي للكلاب ونفي مرافقوه من إسطنبول. ووزع ديارهم وضياعهم على ضباط الجند[43].

- **دولة السلطان عثمان بن أحمد العثماني**: «لما تولى الملك قرب أحد الفقهاء وجعله مفتيا في دولته، ولما أدرك المال والجاه بصولته صار يجتمع عليه بعض الاحداث من سفهاء الطلبة ويبالغون في مدحه، ويرفعون ما كان محطوطا من قدره مع اشتهار بحقه وجرحه، فشم من ذلك نتن إبطه...»[44]. واستغل خروج السلطان للصيد في مكان بعيد عن إسطنبول، فاتفق أن يعزله ويولي ابن أخيه، فبلغ الخبر أم السلطان التي اتصلت بابنها ليتدارك الامر. فعاد في الحين «فأحضر في الحين المفتي بين يديه... فقطع رأسه وعلقه بالباب ورمى جسده للكلاب... وأمر بنفي أصحابه أهل التدبير... وفرقت أملاكهم على الأجناد، وهذا جزاء أهل البغي والفساد»[45].

- **دولة السلطان أبي سعيد عثمان المريني**: لما جاءه ولي عهده أبو علي الحسن وحاربه معتمدا على دعم القاضي والمفتي، فنفاه لولاية سجلماسة رفقتهما. وعين مكانه أبا الحسن في ولاية العهد. وحين توفي أبو سعيد دعا أبو علي لنفسه، وبدأ يعيث فسادا في الناس، إلى أن حاصره السلطان الشرعي و«ظفر به وبمن معه وأشهره وأتى به وبالقاضي والمفتي في الأغلال، والهوان والمذلة بعد الإجلال»[46]. ثم قتلهم بباب الفتوح حين عودته إلى فاس.

- **السلطان المولى إسماعيل**: قضية عبد السلام جسوس[47].

- **السلطان عبد الله وفقهاء مكناس**: حين بايع هؤلاء أخاه المستضيء ثم انهزم وهرب، وعاد السلطان عبد الله ورفض دخول مكناس ونزل بقصبة بوفكران، تحت ذريعة أن القلعة خطب على منابرها باسم أخيه، فخرج للقائه أهل مكناس وأشرفها وقضاتها ومفتيها وعلماؤها . وأمر بالطواف بكل من بايعوا أخاه، وتجريدهم من خيلهم وسلاحهم، وعين يوسف بوعنان قاضيا للقضاة «وأمره أن يعزل كل قاضي ومفتي وخطيب والشهود الذين أفتوا وبايعوا وخطبوا وشهدوا في البيعة بكل بلد مقصود، ففعل ذلك أبو عنان الجاهل الجلمود»[48].

وختم الزياني جرده لهذه النماذج بالقول: «وهكذا يكون إن شاء الله حال هؤلاء الفجار الخونة الاشرار، والسبب في هذا كله بغض المفتي وبطانته من الأدناس،

43. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 207.
44. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 207 ـ 208.
45. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص. 208.
46. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 208 ـ 209.
47. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 209 ـ 210.
48. أبو القاسم الزياني، *تحفة النبهاء*... ص ص. 210 ـ 211.

لمن ولاه أمير المؤمنين القضاء بفاس الفقيه ابن العلامة بن شيخ الإسلام العباس، وقالوا هذا الحدث لا يصلح للولاية على الناس، وذلك منهم بغض وحسد وظلم، لأنهم أفتوا بغير علم»[49].

استنتاجات:

- تكمن جرأة مواقف الزياني السياسية في انتقاده لأصحاب الجاه والنفوذ دون حرج، وفي تعبيره عن نفوره السياسي من اليزيد الذي تبرأ منه أبوه، وعن مساندته العلنية للمولى سليمان. كما أن الزياني لا يكتفي بالتدوين، وإنما يبدي رأيه السياسي فيما يجري من أحداث.

غير أن هذا المد والجزر الذي عرفته مواقف الزياني لا يمكن فهمه بمعزل عن التبدلات وأحيانا الارتجاجات التي طالت علاقات المولى سليمان بالعلماء. إذ بعدما اتسمت بالود مع من تتلمذ على يدهم من الشيوخ والمنتمين خاصة إلى فئة البلديين وهو ما كان يثير حفيظة الشرفاء[50]. فسرعان ما ساءت وهيمن عليها التوتر بعد وفاة هؤلاء وبروز جيل من الشباب الذين هيمنوا خاصة على خطط القضاء أمثال قاضي القضاة عباس بنسودة[51]. وأسفر ذلك في المحصلة النهائية عن تقوي مكانة الشرفاء، وتراجع مكانة البلديين في اتخاذ القرار ضمن صفوف النخبة العالمة[52]. غير أن إقدام المولى سليمان على إلغاء بعض الامتيازات الجبائية والقضائية التي كان يتمتع بها الشرفاء، وموقفه من الطرق الصوفية الناجم عن تأثره بالمذهب الوهابي، أفضى إلى وقوف هؤلاء في الواجهة خلال فتنة فاس[53].

---

49. أبو القاسم الزياني، تحفة النبهاء... ص. 211.
50. محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار... ص ص. 252 ـ 253 ـ 254.
51. محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار... ص ص. 255 ـ 256 ـ 257.
52. محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار... ص ص. 255 ـ 256 ـ 257.
53. محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار... ص. 265.